الفصل السّادس

تكون العقد النفسية عبر الولاء

"عقدة ابراهام نموذجاً"

تمهيد

إن العيش في ظل ظروف من عدم الاستقرار الأمني، والانعكاس غير المستقر على تفاصيل الحياة اليومية، كما حدث بالتحديد في ليبيا وسوريا في السنوات الماضية، أُسجل تقييمي كمحللة نفسانية متابعة عن قرب لهواجس الناس بالداخل السّوري من خلال الحالات العيادية التي عاينتها، ومتابعتي المتواصلة للحدث الليبي، إن هذه الأحداث أفرزت كماً من العقد النفسيّة التي تكرّست وتتكرس باستمرار بفعل استمرار الظّروف المسببة لها، إضافة إلى محمولات الماضي لكل شخص، وكم سنحتاج من العمل لإعادة توازن النفوس، وجعلهم يبصرون أهدافاً لحياة مستقبلية تنتظرهم، متخطين رعب وبؤس هذه الأيّام التي عاشوها، والواقع السّوري اليوم ثري كحقل للبحث النّفسي، بهدف وضع خطط استشفاء بما يناسب كل حالة، والحالات كثيرة متشابهة يلزمها علاج جماعي بغية الشّفاء من كوارث تسبب بها العالم من حولنا، ومن خلال المساعدات المعطل وصولها لمحتاجيها، ممن كانوا ضحية العنف المستفحل في البلاد، وأيضاً من كانوا ضحايا كوارث الطّبيعة التي حلّت عليهم في بلاد اللجوء بفعل الثّلوج التي لا سابق لها (واقع حال مخيم الزعتري، شتاء 2012-2013)، منذ أكثر من عشرين عاماً على البلد ودول الجوار... ليكون الصراع ضد الطبيعة، والصراع ضد تنظيم الحياة الاجتماعية، هدفي الحضارة الإنسانية لبلوغ السعادة، كون الإنسان وعلى الدوام يود تجنب الألم ويحس بمشاعر لذة قوية، حين استطاعته تجنب الآلام...

ففي إلقاء النظر على بعد تاريخي لواقع حالنا في هذه المنطقة وغيرها في التاريخ الإنساني، يمكننا الاستنتاج أن الحضارة الإنسانية بمتطلباتها غير المحدودة في كبح رغبات الإنسان، كانت بؤرة خصبة لنشوء المتاعب النفسية. ومن جهة أخرى فإن اجتياف العدوانية، وتأسيس (الأنا الأعلى) يحصل عبر إرجاع العدوانية إلى النقطة التي انطلقت منها الحضارة، بحيث يتم تفريغها من محتواها وتجريد الفرد من سلاحه، ومراقبة سلوكه بواسطة أناه الأعلى، من هنا تقاد الحضارة إلى مقاومة ذلك الدّافع العدواني، بكل حزم مفاقمة بذلك الشعور بالذنب الذي سيشهد على امتداد تطوره، لقد جهد (فرويد) في بحثه عن نظرية أساسية حول أصل المجتمع، انطلاقاً من بنية نفسية كونية، تؤسس لمعرفة أوسع لفهم السّلوك الإنساني استناداً لمنطلقات أساسية تجمع السّلوك البشري كله، وذلك خلال سعيه الجاد لتأطير هذه الأسس لفهم بنية النّفس البشرية، فقد تمكن نتيجة بحثه ذاك من بناء (هوام: Fantasme) لحقيقة كونية انطلاقاً من مقتل الأب زعيم العشيرة البدائية، حيث كان إنسان ما قبل التاريخ يعيش في جماعة بدائية تحت سيطرة استبدادية مطلقة لأب قاس غيور استأثر لنفسه بكل النّساء، وطرد أبناءه بمجرد أن شبوا عن الطّوق وكانت هذه هي صورة العشيرة البدائية بدون محرمات أو طوطم، يحكمه مبدأ أوحد هو سلطة الأب الرّهيبة، ولم يكن ثمة ضمير بعد إذ لم تكن ثمة معايير أو قيم وبالتالي لم تكن إمكانية لبناء مثل أعلى، الغرائز والانفعالات لهما السلطة المطلقة، وقد اقتتل الإخوة فيما بينهم لمنع أي كان من الاستيلاء على هذه السلطة، التي يحوز عليها الأب، مع الإفصاح عن حقهم في الحصول عليها، وكان من شأن هذا الموقف المفارق، أن يترك فراغاً في مكان الأب الميت كمؤسس للتّحريم، أما الشعور بالذّنب (sentiment culpabilite) الذي تلا ذلك فهو يعود إلى اختفاء الرغبة، ولا تتوانى جريمة قتل الأب (الزعيم) إثر نشوة النّصر عن تفجير الأسى في قلب الإخوة القتلة، لأن (تجاذب المشاعر ambivalence) يدفع إلى الخوف من الأب، ومن ثم إلى كرهه، وفي الوقت نفسه إلى كونه مثار إعجاب ومحبّة، هنا يمتزج الحب والحقد والرّهبة، والإعجاب في هذا

القتل، حيث يشكل هذا التّجاذب تجاه الأب أساساً، لتفسير الأعراض المتناقضة والمفارقة، "فالأخوة كانوا يكرهون الأب، الذي كان يعترض بقوة إشباع رغبتهم إلى القوة، وإلى متطلباتهم الجنسية، ولكن على الرغم من كرههم له، كانوا يحبونه ويعجبون به، وبعد القضاء عليه، وبعد إشباع حقدهم وتحقيق تماهيهم معه، عبروا عن مشاعر رقيقة جداً تجاهه، رؤية مؤسس التّحليل النّفسي الشّهير "فرويد" هذه سهلت لفهم الموقف العاطفي، من حيث إن عملية القتل لم تكن لتشبع كلياً، أياً من الشركاء المتواطئين، فهذا عمل لا جدوى منه، هذا في وقت نعلم جميعاً: أن الهزيمة تؤتي ردة الفعل الأخلاقية، أكثر مما يفعل الانتصار.

عملت مقدمتي الاستهلالية هذه، لجعل السياق المنهجي للبحث في عقدة الولاء الشائكة الأبعاد كونها إشكالية فلسفية تبعاً للدين والأسطورة وإشكالية واقعية تبعاً للتاريخ السياسي.

فهل ما زال الإنسان البدائي يكمن في لاوعي الإنسان الحاضر؟ وبالتالي الخروج من هذا المأزق الصّراعي، هل يتم على أساس مثلاً:

– تأسيس عقد اتفاق يحل النّزاع بين الإخوة ويضمن العيش معاً بسلام.

– إعادة إحياء الأب الميت – الأب المثالي– والاتفاق معه مجدداً ليكون الحَكَم..

وبذلك هنا يتم استخراج قانونين متلازمين:

الأول: يتصل بتحريم المحارم، أي ما كان الأب يدافع عنه بقوة، وهو الاستحواذ الحصري على الأم، هذا المحرم له نتيجة شديدة الأهمية: هو أساس الشعور بالتّماسك الاجتماعي، الذّي يعدّ أساس تفاعل الوعي بين جميع أفراد المجتمع.

الثّاني: تأسيس القانون الأبوي (البطريركي patriarcal). يكمن وراء هذه النظرة للأمور ما ألمح له "فرويد" عن نشأة المجتمع والأخلاق: من خلال بحثه أي "فرويد" عن نظرية أساسية حول أصل المجتمع، انطلاقاً من بنية نفسية كونية

(Universelle)، وبنـاءً علـى نظرتـه الشّـمولية تلـك، تمكـن مـن بنـاء (هـوام: Fantasme) لحقيقة كونية انطلاقاً من جريمة قتل الأب زعيم العشيرة البدائية، واقتتال الأخوة، وتحريم المحارم (سفاح القربى)، وإنشاء القانون البطريركي. وتبعاً لذلك كانت جريمة قتل الأب، هي ما أدت إلى بناء المجتمع الإنساني على أساس عقد اجتماعي واضح الحدود.

حين طبق "فرويد" التّحليل النفسي على الجنس البشري، اعتبر أن ثمة نفساً جماعية تجري بداخلها العمليات النفسية على نحو ما تجري بداخل النفس الفردية. وبذلك عندما تظهر العدوانية بشكل تلقائي، وتكشف في الإنسان بعداً متوحشاً، بحيث يفقد أي اعتبار لبني جنسه، وإذا حدثت وتخفت لفترة القيود الاجتماعية المفروضة على نزوة العدوان، فإن الإنسان المتحضر نجده يرتد إلى حالته البدائية... وهناك يتم طرح سؤال وجيه حين نواجه الموت الأخوي أمامنا، يمكنني صياغته وفق ما يلي: هل يعيش إنسان عصور ما قبل التاريخ داخل لاوعينا دون أي تغيير؟

فحـين تنحـدر الصّـراعات المـدمرة لـدرجات دنيـا، يسـقط عبرهـا الوجـدان الإنساني؟ وهنا لابدّ من الإشارة، إلى أن هذه القيم الإنسانية الوجدانية حين تختفي، يعود الإنسان إلى ميوله الشريرة الأصلية، متحرراً من وخز الضمير، ومن كون شهوة القتل، أصبحت متحكمة بمخيلته، وبالتّالي على كل الصور الذهنية التي تنتج لغته المنطوقة في معاشه اليومي، من هنا يصبح هذا الإنسان مستعداً لارتكاب أفظع الجرائم، وممارسة العنف، وإلحاق الدّمار والأذى عند الآخر المخالف له بتوجهاته وميوله، كونه يخضع بذلك لنزعة العدوان التي تقود أعماله، عبر إلحاق الدمار والأذى عند الآخر، ليكون بذلك كل إنسان تعشش فيه ميول هدامة، وبالتالي مناهضة للمجتمع والثّقافة، وهذه الميول قوية بما فيه الكفاية، عند عدد كبير من الناس، نجدها تحدد سلوكهم أمامنا في تجمعنا الإنساني، من خلال ما تقدم يمكن توضيح المنبت المناسب لتكوين العقد النفسية، ولم أجد لذلك أفصح من توضيح منبت العقدة النفسية هذه، مما خطه مؤسس التّحليل النّفسي العربي الرّاحل

"مصطفى زيور" الذي يقول في تعريفها: بأنها تشير إلى مجموعة من الأفكار، وما يرتبط بها من الانفعالات المكبوتة المتداخلة، في مركب كلي يدفع الفرد لاشعورياً، لأن يفكر وينفعل، ويسلك متخذاً نمطاً بعينه يتصف بالجمود، المتمثل بانعدام القابلية للتعديل، وفق مقتضيات الواقع المتغير، ومن العقد التي أجد من الضّرورة إبراز الحديث عنها هنا، ما يسمى (بعقدة الأب الحامي أو ما يعادلها عقدة ابراهام) وفق اللغة النفسية التّحليلية: حيث سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام هو (أبو الأنبياء) وبالتالي هو الأب الرمزي بالمعنى النّفسي والمجاز اللغوي، هذه العقدة التي تشير إلى الاستسلام لقيادة مطلقة، تدعو صاحبها إلى حياة داخلية صوفية، في اللحظات التي فيها تثقل مسؤولياته، لنجده ينقاد حتماً إلى تفويض أمره إلى الإلهام أو إن شئتم القدر، ومن ناحية أخرى تسليم أمره لمرجعية، تأخذ موقع الأب السّند الحامي، ومنحه الثقة ليتصرف، ويجد تصريفاً لواقع الحال الذي هو عليه، بحيث يمنحه قيادة مطلقة لمصيره، ففي اللحظات التي تصل فيها السلطة الأبوية أوجها هذه، في حال يأمر فيها الأب الواقعي بالتضحية بالابن، إما لكونه ابناً عاقاً في حال خالف مشيئته ونظامه، وإما لكونه الابن البار الذي يدافع عن الأب تلقائياً بدون أدنى تفكير على مبدأ الطاعة والبرّ، هنا ما يحصل يكون مقدماً، كقربان أو ضحية لا مثيل لها تقدم للآلهة، ليغدو حلاً للمآزم النفسية التي استفحلت، (تضحية ابراهام / أي الأب) أو عقدة ابراهام، هي التكريس الأسمى لعمل ما، وبناءً على هذا التكريس المطلق للتّبعية الصّوفية، أو المحبة الصّوفية إن شئتم، قد تقوم الحرب بطريقة غير مباشرة، وتعمل وفق وظيفة الضّحية السّالفة الذكر، ليكون فيها الآباء، إن ضحوا بأولادهم، مرتاحين من أي ذنب.

إن العمل السياسي يتطلّب حركة وكلمة وصوتاً وانفعالاً وتفكيراً حراً ومباشراً، والبنية الذهنية الراهنة هي نقيض ذلك تماماً، حيث إن العمل السياسي يتطلب قناعة ونقداً حراً ذاتياً، وإرجاع الأثر للآخر، مما يعني نقداً له. واللحظة التاريخية الرّاهنة، هي نقيض ذلك تماماً بموجب الذهنية السّائدة ومفاعليها، وبذلك يلزم هنا التّصرف

مع المنطق الزمني والرّوحي بشكل تصالحي، وبناء عليه فإن العمل السياسي، لا يقوم على مجموعة المتظاهرين في الشّارع، ولا على من يحملون السلاح في وجه مناصريه، العمل السياسي وفق قناعتي التي أخطّها هنا: لا بدّ أن يتجه لكل شخص يحرص على بناء عناصر فاعلة في بلده، فالبنية النفسيّة القابعة في أساس الأنا، تؤخذ في استعراض الآخر القرين، فيحصل تماهٍ في شكل غيرة منافسة، إما أن تكون غيرة محببة، أو تحبب في غيرة، بحيث يتماهى الثاني بالأول، وكأنه في وضع مرآتي يتأمل نفسه في الآخر، ويتحكم بهذه العلاقة ما بين الذات والذات الأخرى، انقسام أساسي داخلي خاص بكل طرف، بحيث تبقى هذه البنية قابعة في أساس الأنا، ولا تلغى كلياً وهي تبعاً "للاكان" متحكمة بعلاقة السّيد والعبد، كما يرد من أي طرف، لأن هذه البنية تبقى قابعة في أساس الأنا، ولا تلغى كلياً وهي تبعاً "للاكان" متحكمة بعلاقة ضامنة في إشكالية "هيغل" لتصبح علاقة عشقية، عندما يقول العاشق للمعشوق: أنا أنت وأنت أنا، وهنا الحوار يصبح معدوماً، كونه منغلقاً ليس فيه مستقبل ومرسل، بل افتقد عناصره، وهنا مقبرة الديمقراطية، وعيش الاندماج، والتبعية من خلال اندماج العبد بالسيد، الضّحية في الجلاد لتعاش متلازمة "استوكهولم" حيث تضيع المعاني، وتعاش مرضية القهر والاستلاب، إذ يصبح الإنسان في مثل هذه الحالة طوعياً يستسلم ويعبد جلاديه، ويدافع عنهم، ويكرسهم بقوة كحكام لأمره، لأنه أصبح أسيراً له، بفعل الخوف من التّضحية به، وعلى رأي أستاذي المرحوم البروفيسور عدنان حب الله "الخوف يبرر العبادة دائماً"...

العنف توظيف في خدمة الأنا المثالي لكل منّا

إن الحديث عن الأسباب والعوامل النفسية التي كانت وراء حروب أهلية، وحروب مدمرة كالتي قام بها "هتلر وموسوليني وحتى لينين" وحتى عبد الناصر وكذلك صدام حسين، تبرز سمات القائد لديهم، مسؤولية كبيرة كون كلّ منهم كان مطروحاً كمثال أعلى لتأجيج الجماهير، لأنه يصبح في آخر الأمر، يؤمر من

الخارج ومن الداخل عبر الأمر النفسي الذي يعطل المنطق والتفكير العقلاني، حيث القدرة على النقد...

أصبح من الواضح أن الإنسان مهما كان تكوينه، يرنو دائماً إلى تحقيق الأنا المثالي، يركض وراءه دون أن يتمكن من بلوغه، وإذا تجسد مثال الأنا في شخص ما يصبح القائد المثالي الذي تلتقي عنده كل الجماهير لكي تتماهى به، أو حتى التوحد به إلى درجة ذوبانه والتهامه.

ونحن نعرف على صعيد التّحليل النفسي، خلافاً لما يحصل في الواقع في سيكولوجية الجماعة، أنه رغم أن الإطار الذي يحصل به التحليل هو أشبه بالمختبر، مركباً اصطفافياً، فلا هو في الواقع رجلاً مثالياً ولا يدعي تحقيق المعجزات أو القيام بأعمال خارقة. بل ينتظر أن تبزغ مظاهر المثالية، لكي يعالجها لأنه يعدّها أشبه بالحالة المرضية مدعومة بنرجسية مطلقة، مهمته أن يشفي مريضه منها، وهي تتميز باتجاهين:

الاتجاه الأول: إن هذا المثال يستمد قوته بالنسبة للمريض بأنه يفترض أنه عارف لما يعانيه من أزمات نفسية، وأنه قادر على تحريره من القيود والعقد الموروثة حتى يحقق سعادته في الحياة عبر متع لامتناهية.

الاتجاه الثاني: إن كلامه أصبح مسموعاً وله تداعيات نفسية وسلطوية على مسار الأمور، فيستعمل هذه على شفائه من مرض المثالية لكي يبددها وينقلها من المتخيل إلى الواقع لكي يصبح في النهاية رجلاً عادياً بين الرجال وأن المثالية التي كان يسقطها عليه ليست إلا وهماً نرجسياً كانت الأنا تضلله عبرها عن حقيقة ذاته ويلاحظ في قمة هذه المسيرة أن المريض يفقد قدرة النقد ويتعطل ذكاؤه ويصبح مرهوناً بهذا الآخر الكبير الذي يمثل الأنا المثالي...

وإذا أجرينا مقارنة بين الموضعية المتصلة بكلّ من المحلل والقائد يمكننا القول: إن الأول يفسح المجال كي تنكشف هذه الظاهرة المكونة دون أن يشارك المريض المعتقد (أي أن يرى في نفسه عارفاً ويقيناً) حتى يتمكن من تفكيكها أو

تبديد وهمها، فيتمكن عندئذ من الحداد عليها، أما الثاني أي القائد فإنه يعكس صورة مرآتية من صنع جماهيره فيتماهى بها، ويرى بها تكاملاً يضخم نرجسيته وتصبح أناه المتضخمة غير قابلة للنقد، أو استكشاف أخطائه أو تصحيح مساره قبل فوات الأوان. وأعتقد أن نموذج صدام حسين والنهاية المأساوية لشعبه خير برهان على ذلك (عدنان حب الله، 2004م، حول مفهوم الأنا وتمثلاته المختلفة، أحد سيمنيرات المركز العربي للأبحاث النفسية والتّحليلية).

هذه الظاهرة موجودة منذ قديم الزمان، قبل أن يكشفها التحليل النفسي فقد أشار عليها لابويسيه (Leboecier) في مقالة قصيرة له سنة 1552 تحت عنوان "العبودية المختارة".

السؤال الذي يُطرح: ما هو السّر الذي يجعل بعض الحكّام برغم اختيارهم من قبل شعوبهم في موضع يخوّلهم التّحكم بسلطة مطلقة؟

يقول (لابويسيه) إن الجواب سهل: فإذا تموضع هذا الشّخص في مركز السلطة لأن الشعب قد نصبه، فيكفي لهؤلاء المواطنين أن ينزعوا عنه هذا التكليف حتى يسقط كورقة الخريف، وهذا ما حصل للويس السادس عشر إبان الثّورة الفرنسية، فبعد أن كان ملك فرنسا يتمتع بالسلطة المطلقة سحب عنه الشّعب هذا التّكليف، وأضحى بين ليلة وأخرى لويس كابيته (اسم عائلته) واقتيد إلى المقصلة. ولكن يزيد "لابويسيه" على ذلك، وهنا يكمن السّر، أنه إذا سحبت السلطة منه نصبّوا مكانه آخر، قد يكون أكثر ذكاء يستعمل طرقاً أكثر تحايلاً ومراوغة، فيما السلطة قد تكون أكثر تعسفاً وظلماً. إذاً هنالك عامل يصعب فهمه، هو أن الجماهير بحاجة إلى من يحكمها ويديرها، وتنقاد إليه بدافع عبودية مختارة مجبولة في طينة البشر، وهذه الصّور للبنية الاجتماعية، ولمفهوم السلطة المستوحاة من الصورة المكونة للإنسان، فلكل جسد رأس يديره ويسيّره، كما يقول هوميروس: ملك واحد لشعب واحد. أو كما يقول الدّين المسيحي بأن الله خلق الإنسان على صورته. والفراعنة عندما بنوا الأهرام كانت هندسة البناء مستوحاة من سلطة الفرعون الذي

يقف على رأس الهرم. وبقيت هذه الصّور الجسدية مهيمنة في مخيلة الشعوب، فبنت أساسها وتصورها لشكل الحكم، حيث يسود على رأسه القائد أو المثال تدين له الشّعوب بالحب والوفاء والإذعان.

إن تفشي هذه الظّاهرة بالعالم – لاسيما الحضاري – أصبح مصدر قلق معمم للعامّة والخاصة من المتخصصين النّفسانيين والاجتماعيين. فلا يخلو دين أو مذهب من ظاهرة الملل والنِّحل (الانتماءات الضّيقة المتعصبة)، ففي الدّين المسيحي هنالك الكنيسة العلمانوية (Eglise Scientologique) والعديد من الكنائس المستقلة في أمريكا الجنوبية، وفي الإسلام تتعدد الفرق من الإخوان المسلمين وإلى القاعدة وجبهة النُّصرة مؤخراً في سوريا، وتتعامل السّلطات معها مهما كانت، ولا سيما الإسلامية على أنها مِلل ونِحل بعيدة عن الدّين الحنيف ومصدراً لتفجير العنف العالمي والإرهاب.

وبتحليل هذه الظّاهرة يتبين أن انتشارها المستفحل مؤخراً يعود إلى حاجة نفسية واجتماعية في آن واحد، لتأكيد الذات والوجود، رداً على التّعدي الغربي على الإسلام، والمقدسات الإسلامية في فلسطين، والتّعدي على شخص الرّسول بأكثر من أسلوب في السّنوات العشر الأخيرة، وتستقطب هذه النزعة عند البعض ولاسيما الشّباب بعمر المراهقة حتى أوائل الرّشد...

فلكي يتمكن المراهق من المرور بمرحلة التكوين لشخصيته المتحررة من والديه يجب أن يتحقق شرطان: هويته الجنسية وهويته الشخصية التي تؤكد انتمائه العائلي والاجتماعي، ونراه في هذه الحالة يسبق الراشد في تطبيق القيم والأفكار التي تدخل في خانة "ما لا يقال" ونراه في هذه المرحلة شديد التّأثير، بممارسة غسل الدّماغ وإدخال الأفكار الهجينة تحت شعار الدّين الثّائر على الفساد مثلاً، أو الأفكار الثورية الهادفة الى التّغيير وتحت مسميات مختلفة الوطنية والمقاومة والممانعة، ولكن إضافة إلى ذلك يكون دائما وراء ذلك قائد يتمتع بكاريزما، يبهره ويحتل مكانة كبيرة في مخيلته كمثال الأنا، من حيث هو قابل للانتماء.

ولأنه مضعضع النفسية لأنه لم يصل بعد إلى التّوازن العقلاني، فهو ما زال في مرحلة القلق، والهيجان الانفعالي الثائر، يتمرد على والديه ولم يستقرّ بعد على نموذجه الخاص، هنا الخطورة من أن تتلقفه جماعات معينة تدخله في مجالها الجاذب، وبذلك يصبح القتلى بهذه المرحلة معرضاً لخطر الانهيار الذاتي إلى تبعية والديه، أو القفز إلى خارج دائرتهما إلى أفكار كبيرة تعطيه الدافعية لثبات مقدرته على الاستقلال من بوتقة الأسرة إلى العالم الأوسع، فلذلك يجد في الانتماء أي القائد "مثال الأنا" ملاذاً له، ويجد فيه يقيناً يأخذ على عاتقه قلق الوجود ومصيره في الحياة وفي الممات. وإذا التزم بها القائد الذي نصبه مكان المثال الأعلى، كونه يتمم صورته الذاتية، أي أنه يجد الكمال في هذا الوجود، عندما يختزل ذاته في موضوع يتمم الآخر الكبير، وهو بالمقابل يكتمل به.

ولكن يبدو لنا على ضوء هذا العنف المعولم، أن الأمور تتعقد في اتجاه تجاوزه أو التقليل منه، لأن العنف هنا هو بمنزلة نتيجة هذا التكامل بين المثال والأنا يلتقي الآخر حتماً، لأن هذا التكامل يأخذ منحى القدسية ويجب دائماً الحفاظ على نقائه، ولو كلف ذلك عمليات انتحارية.

حيث يطغى الدين على السياسة أو (تسييس الدين) فلا بدّ عندئذ من أن يندلع صراع مسلح يؤدي إلى حرب أهلية، تحت تأثير جاذبية المثال (العقيدة) المتجسد بالقائد، أو بسبب القائد المثالي الكاريزمي، وهذا التقسيم الحدودي على أساس المثال الأعلى له تداعيات كارثية على الساحة العالمية، فابن لادن مثلاً لم يكن يختلف عن بوش الابن، فالأول قسم العالم إلى قسمين: المؤمنين والكفار، والثّاني قسم العالم إلى محورين الشر والخير، فالبنية الفكرية واحدة وتنطلق من الالتزام المبرم بالمعتقد الديني كمثال أعلى سواء كان من جهة أم من أخرى، حيث في النهاية العلاقة بين الطرفين هي علاقة: مرآتية أو أشبه بالبارانويا أي صراعية، إما أنا أو أنت، لا وجود لوسيط كطرف ثالث، ونتيجة ذلك حتمية: حرب ودمار وضحايا بمئات الآلاف وتشرد بالملايين.

إن الخطاب المدّمر يتميز بغياب الأفق الذاتي، فيترك المجال للمثال الأعلى لكي يتكلم نيابة عنه، فيصبح ليس لدينا المجال للقول: إما الخير أو الشر، لنتمكن من القول: لست ضد الخير ولست مع الشّر، يصبح عندئذ الحوار ممكناً لأن الذاتية، وجدت مكانها وحلت مكان الحكم الصارم للمثال الأعلى، مما يمكن دخول طرف ثالث، فبدل أن يكون الخطاب ثنائياً بين مثالين، كخطاب صدامي وعنفي ليصبح قائماً على ثلاثية قابلة للتحاور دون المس بالقدسية.

على ضوء ما تقدم ثلاثة أسئلة تتبادر إلى الذهن:

1- لماذا قدر الإنسان المتكلم السعي الدائم وراء المثال الأعلى؟

2- لماذا يكون الشّباب اليافع أول ضحايا هذه المثالية؟

3- لماذا المثال والمقدس يستمران رغم تآكل الزّمن ولا يتأثران بالمنطق العقلاني؟

وفي حالة غياب الجواب عن كل هذه الأسئلة يتوجّه نحو الآخر الكبير لكي يجد الإجابة، ولا يبقى من سبيل أمامه سوى تنصيب مثال أعلى على قياس نرجسيته سواء باللجوء إلى الملل الدينية (Sects) أو المجموعات والعصابات التي يترأسها قائد، أو اللجوء إلى إدمان الكحول والمخدرات، أو الانخراط في مجموعات إرهابية تمكنه من إنقاذ الآخر الكبير من التفكك والتلوث، وقد يكون الدافع النفسي وراءه كل ذلك الانتقام للأب الذي يعاني الذُّل.

وذلك عبر تفكير لا واعٍ والتفكير اللاواعي، كما وصفه "فرويد" ليس سلة مهملات للغرائز والموروث البدائي الهمجي، فهو المكان الغائب عن وعينا الذي يحمل في طياته الإبداع الفكري والفني، إضافة الى النزوات الجنسية والعُنفية وهو متواصل باستمرار مع الأنا الحاضرة، لكن ما يجعله مستغلقاً، وبعيداً عن متناول معرفتنا هو أن المقاومة المكونة في الأنا دون إدراكه ويعود ذلك إلى الاكتشاف الثاني وهو الكبت اللاواعي المتكون في الإنسان منذ الطفولة انطلاقاً من الكبت الأولي الذي يعود تاريخه إلى بداية دخول الإنسان الأول في حقل اللغة أي أن

اللغة هي التي تشترط تكوين اللاواعي... اللاوعي في المفهوم الشعبي والديني، هو من علم الله، وكفكرة تريد أن تكتشف عن هذا اللاوعي تصبح دخيلة وتدخل في منافسة مع الدين، وكلما زاد التزمت ضاقت فسحة تحرر الأنا واكتشاف اللاوعي...

إذاً "الأوديب" بنية تكوينية للذات تمكن الإنسان من خوض الحياه عبر التحكم باللغة، وتحجيم مخاوفه عن طريق الترميز وتخفيف توقع المجهول، كل ذلك يتحقق بنسب مختلفة عندما يتمكن من اجتياز مرحلة الخصاء الرمزي.

فالخوف من الخصاء لا يعادله خطر، من كونه يشكل سطح المخاوف المتخيلة، فقد اعتبر "فرويد" أنّ الخصاء يشكل أكبر صدمة يواجها الإنسان في حياته، أي بمفهوم أخر يشكل المتخيل الأقصى للمآسي، وكي يخرج من عقدة الخصاء يجب أن يودي بدينه الرمزي، أي التضحية بمتخيل المتعة اللامتناهية، أي أن يصل إلى حدود لا يتجاوزها، حتى أفكار الموت تدخل أيضاً في هذا الإطار، فهنالك من ينكر الموت على أنه حدّ لا يمكن تجاوزه، ويترك للآخرة الوعد في هذه المتعة اللامتناهية.

من هنا نصل إلى الربط بين المثال الأعلى المتجسد بالقائد وما بين المتعة اللامتناهية، يصبح حينها كل أمر متاح بغية الوصول لهذه المتعة، فيعود ذلك بالدرجة الأولى إلى أن التماهي، يوفر عليه ضريبة الخصاء (والتي تتجلى واقعياً عبر التقزيم الاجتماعي ومحو الهوية تجاه الأكبر، تجاه السلطة بأي شكل تبدت) من هنا يكون التماهي بالجلاد صمام أمان لعدم البتر من خلال الاندماج كأن يكون ضارباً وليس مضروباً، مما يؤمن له نرجسيته المتكاملة وأي نقد أو أي إساءة يعتبرها موجهة له...

الإنسان يدخل في صراع مميت مع أخيه الإنسان في حرب تقليدية أو أهلية أو يستبيح دماءهم في أعمال إرهابية ليس للدفاع عن الناس أو لإقناع الضّالين إنما لكي يبرر لنفسه أمام المثال الذي يذعن له ويدين له بالولاء، ويبعد عنه هذا الانقسام الذاتي التي يفتح المجال للاعتراف بالآخر، لأن العالم موحد في معتقده،

وكل هذه الأعمال العنيفة تهدف إلى إحياء المثال الأعلى كي يحميه من عملية الخصاء الرّمزي. وهكذا يحل الأب المثالي ويأخذ حيزاً أكبر في الحداثة على حساب الأب الواقعي.

وهنا نعود إلى المراهق الذي يقف على مفترق طرق ويتساءل: هل هو رجل أو امرأة؟ (بمعنى أدق السؤال عن ماهية هويته الجنسية) ما هو العمل الصّالح وما الفائدة منه كي يصبح مواطناً صالحاً؟ وكيف يمكن أن يجسد القيم المتوارثة ويحافظ عليها؟ ...إلخ.

وفي نهاية الأمر نجد أن الأرض الخصبة لتنصيب الأب المثالي ينمو ويكبر في البلاد المتخلفة، والتي لم تعرف الدّيمقراطية أو التي أفرغتها من محتواها، فنرى أن الحاكم يستمد سلطته المطلقة من تجسيده لصيغة الأب المثالي، الذي يعشش في المتخيل الجماعي، فينشأ من جراء هذا الموقع هوة بين الحاكم وأفراد الشّعب، فهو بمنزلة الأب وهم بمنزلة الأبناء.

وما بين تقاطع المفاهيم ما بين الشّرق والغرب، نجد أنّ المثالية في مفهومها الإيديولوجي تفرز العنف المميز سواء في الاستهداف العنصري أو في الحرب ضد الإرهاب، وارتكاب العديد من الجرائم ضد الإنسانية تحت شعار الحفاظ على القيم الإنسانية، ولكن الجميع من أي جهة كانوا نراهم يذهبون ضحية على مذبح الأب المثالي المتخيل، سواء أكانوا فاعلين أو منكوبين، وهنا مربط الفرس في ضرورة تقبّل الحاكم للنّقد والمراجعة وقراءة انعكاس صورته في عيون جمهوره بجرأة وبحس ديمقراطي منفتح مع منطق العصر ومنطق العقل...